

الوظيفة التداولية للإحالة المطلقة في الخطاب الشعري الشفاهي .

د. أحمد زغب

المركز الجامعي بالوادي (الجزائر)

يتنازع الدراسات اللغوية المعاصرة اتجاهان كبيران؛ أحدهما يعتبرها نظاما، والثاني يعتبرها خطابا، وتسيطر التداولية (البرغماتية) على الاتجاه الثاني⁽¹⁾. ومن الممكن في النصوص الكتابية أن نتحدث عن غياب المؤلف أو وفاته، وتتناول النص الكتابي باعتباره بنية مستقلة عن قائلها وظروف قولها وتلقيها، أما في الخطابات الشفاهية؛ فصلها عن سياقها يعتبر تجنيا عليها.

تداولية الخطاب الشفاهي:

تخضع الخطابات الشفاهية إلى ما أسماه أصحاب الموسوعة الجديدة بالوضعية العامة للخطاب *situation générale du discours*، ويعنون بها مجمل الظروف التي جرى داخلها الفعل الكلامي، وتضم المحيط الاجتماعي والمادي الذي نطق فيه بالكلام، كما تضم الصورة التي شكلها السامعون عن طريق تفوهمهم بالخطاب، كما يضم الأحداث التي سبقت عملية التلفظ، وبخاصة العلاقات التي كان المتخاطبون يتعاطونها فيما بينهم، ومعنى هذا أن كل خطاب يقال في ظروف معينة، والذين يحضرون الجلسة التي يقال فيها، يفهمونه بشكل أفضل من الغائبين الذين يطلعون عليه كتابة فيما بعد⁽²⁾. هذا إذا تحدثنا عن الخطاب الشفاهي عامة حين يكون الباث والمتلقي حاضرين في لحظة التلفظ نفسها.

تداولية الخطاب الشعري الشفاهي.

أما إذا انتقلنا إلى الخطاب الشعري، بصفة خاصة، فإن تداوليته تتبدى بشكل أكثر عند ارتباطه بالأداء في سياق وجودي حاضر، بحيث تكون معيارية الحذق والمهارة هي مدى ارتباطه بلحظة التلفظ فكلما استطاع الشاعر أن يوضح قدرته على الارتجال، ودمج المتلقيين في قصيدة اللحظة الراهنة، وكان يشير إلى عناصر ماثلة

أمامه وأمام المتلقين (هنا ، والآن)، كان قادرا على الدخول فورا إلى الوعي الجمعي والملكية الجماعية. فالنص الشعري عامل توحيد لأن كل واحد من المستمعين يحس بما يشير إليه الشعر وكأنه يخصه هو دون غيره، فبين الشاعر ومستمعيه يسيطر نوع من التوحد (Symbiose)⁽³⁾.

أنواع الإحالة الكلامية:

يميز بنفيسست Benvenist الخطاب discours عن القص récit⁽⁴⁾ فالأول هو ما يحيل إلى لحظة التلفظ ، مرتبط بعلاقة تجاوز معها، يحيل إلى علامات إشارية غني بالمورفيمات المسماة Embrayeur وهي التي لا مرجع لها إلا حين تكون داخل إرسالية معينة مثل هنا ، الآن، أنا ، أمس، فلا تكون لها قيمة خطابية إلا حين ترتبط بمرسل ومستقبل، وتكون ذات إحالة إلى زمن التلفظ⁽⁵⁾. أما القص Le récit فيحيل على الماضي المنقطع عن حاضر المتكلم : لحظة التلفظ فلا يقاس بالمسافة التي تبعده عن الحاضر أو تصله به، مثل ذات يوم ، كان ياما كان في قديم الزمان.

أما المحور الثالث من محاور الإحالة الكلامية، فهو ما سمته الباحثة مريم فرنسيس الإحالة المطلقة، وهي الإحالة غير مرتبطة بزمن معين ، إنما تساق كأمر ثابت وحقيقة مطلقة⁽⁶⁾. مثال: (إن الله على كل شيء قدير) (الحق يعلو ولا يعلى عليه).

الوظائف التداولية للخطاب الشعري الشفاهي.

التداولية تعني أن النظام اللغوي سخر لصالح المستعملين له، فلم يعد نظاما مستقلا، فوظيفة المتكلم ، ليس أن يضمن كلامه محتوى : معلومة ، خبر ، فكرة... الخ؛ لكن أيضا أن يبين للمخاطب أن له الحق في أن يتكلم كما يريد أن يفعل، وكل الملفوظات لها قوة إنجازية Force illocutoire⁽⁷⁾ تحقق فعل التلفظ.

والنصوص الشعرية الشفاهية ليست خطابية خالصة ولا سردية خالصة بحيث تشير إلى ماض غير مرتبط بذاتية المتكلم المتصل بلحظة التلفظ ؛ إنما نجدها دائما مركبة من السرد واللاسرد، أي الملفوظات الإشارية واللاإشارية. ومن توزيع الآيات التخاطب: ضمائر ، ظروف مكان ، ظروف زمان... الخ، على هذين النمطين من أنماط الإحالة، انطلاقا من علاقة المعطيات الداخلية للملفوظ بأطراف المتلفظ المعروفة (المرسل - المستقبل - السياق) يمكن استنتاج وظائف الخطاب الشعري الشفاهي:

الوظيفة التعبيرية:

تركز الوظيفة التعبيرية حسب جاكوبسون R.Jacobson على الباث أو المرسل، إذ تعبر عن موقف المتكلم بصفة مباشرة تجاه ما يتحدث عنه، وهي تهدف إلى تقديم انطباع عن انفعال معين صادق أو خادع^(٨).
تهدف كثير من النصوص الشفاهية إلى وصف الانفعال الذي تعيشه الأنا تجاه الآخر : الموضوع بصفة خاصة؛ كالمعاناة والسهر و الألم والشوق والسخط:

حَيْرَ نُومِي بِالسَّهَرِ لِأَلِي شَيْنَ حَالِي وَالْبِدْنَ دَائِمَ فَانِيَه
يَقْبُنِي مَشْعَالٌ وَدُمُوعِي يَعْرِضُنِي حَوْمَانَ فِي الْكَبْدَةِ
هَبْلُنِي تَفْكَارَ عَن قَلْبِي يَطْرَا بِالْمَحَنَّةِ مَحْرُونٌ حَتَّانُ نَلَاقِيَه^(٩)

كما تكثر العبارات والألفاظ الإفصاحية كصيغ التعجب والاستفهام وصيغ الدعاء والألفاظ التي تستعمل بدلالاتها الإيحائية لا الوضعية، لمجرد التعبير عن الانفعال من ذلك أن الشاعر يدعو على محبوبته : **يلهووث عروقه يرقد سعوده** (الأول دعاء بالتواء الجذور ، والثاني دعاء بعدم السعد) كما نجد ألفاظاً أخرى كالكفر والجنون وهي كلها لا تستعمل بدلالاتها الوضعية إنما تستعمل للمبالغة في خروج الإنسان عن طوره من فرط الانفعال.

الوظيفة التأثيرية:

يستهدف الشعر الشفاهي التأثير على جمهور المخاطبين لتغيير مواقفهم، ويكون ذلك التأثير بالأساليب الإنشائية حسب اصطلاح البلاغة التقليدية: الأمر، النهي النداء، الاستفهام... الخ.
وأقل أنواع التأثير أن يرغم الشاعر الحاضرين على الإنصات إليه حين يرفع عقيرته بالنداء:

(يا حضار ، يا مومنين ، يا لسلام ، يا لحباب... الخ) غير أن هذه الصيغ الإنشائية التقليدية تخرج في الغالب إلى أغراض فنية شتى حسب السياقات، وحسب وضعية المرسل تجاه المستقبل ، فالأمر والنهي مثلا يفيدان النصح والحض والالتماس والتوسل والإقناع والتلقين..

الوظيفة التأثيرية للإحالة المطلقة:

إذا كانت الإحالة الإشارية واللاإشارية، لهما ما يبرر التأثير من أدوات مقوية لعلاقة الاتصال كما يعتبرها P.Zumthor⁽¹⁰⁾ وذلك مثلًا الضمائر والظروف، أدوات تقديمية مثل: انظروا واسمعوا... الخ، والنداء والتعجب واستفهام بلاغي... الخ. فإن الإحالة المطلقة ليس لها ما يربطها بصلة بلحظة التلطف أو بالمتلفظين أو المتخاطبين، ومع ذلك فإن الأعمال المستوحاة من النظرية التداولية تعطي أهمية بالغة للضمني L'implicite وهو الذي يقدر تقديرًا في الخطاب⁽¹¹⁾، أي غائب لفظيًا حاضر ضمنيًا كالضمائر المستترة والألفاظ المحذوفة التي لها ما يدل عليها، إلا أن ضمنية الخطاب حسب التداولية أكثر من ذلك وهي تعني الكلام المضمن أو السنص الغائب، أو البنية العميقة الذي لا يعبر عنه الملفوظ صراحة في بنيته السطحية، ففي المثال الذي ضربه Maingueneau، نحن نرفض تأخر بلادنا، ففي بنية الصريحة الرفض، أما في المعنى الضمني المفهوم من العبارة والذي لم تصرح به، وهو أن البلاد تتأخر. ومن هنا كان اهتمامنا ببراغماتية الملفوظات الشفاهية ذات الإحالات المطلقة، وهي اعتبارها تتضمن إحالات ضمنية تفهم من السياق، ولا نجد فيها مقاطع صوتية ظاهرة تحيل إلى المتخاطبين أو ظروف التخاطب:

ففي بيت أبي فراس الحمداني المعروف:

وفي الليلة الظلماء يفترق البدر

إحالة مطلقة غير أنها في سياق البيت، يتحدث الشاعر عن نفسه وهو في السجن، وعن إهمال قومه إياه، ويذكر أنه بطل في القتال، وقومه في حال سلم فهم لا يحتاجون إليه كثيرًا، إلا أنهم لو حلت بهم حرب، فإنهم سيفقدونه لبلائه في القتال، ويأتي بهذا الملفوظ ذي الإحالة المطلقة بمثابة الدليل، والحجة الدامغة فالناس لا يفقدون البدر إلا حين يعمهم الظلام، لذلك فهذه الصورة التي يسميها البلاغيون التقليديون تشبيهاً ضمناً، تدل على الإحالة الضمنية إلى المتلفظ نفسه أي الشاعر (الأنا- والآن- واللحظة المستقبلية المرتبطة بالآن) إذ شبه اشتداد الحال على قومه بحلول الظلام، وافتقاد الناس البدر بافتقاد قومه إياه.

يستند الخطاب الشفاهي من أجل الإقناع والتأثير إلى الملفوظات ذات الإحالة المتعالية على الإشارة، من أجل تأثير أكثر.

النصح:

لا تكون النصيحة مؤثرة ومقبولة إلا إذا كانت تستند إلى معطيات تجريبية أو مقولات ثقافية مرجعيتها عقائدية، أو معطيات بديهية يقرها العقل السليم، وإذا أحس الشاعر أن الطرح الذي تقدم به لا يقبل الجدل يحرص حينئذ على تلقينه على أنه قواعد عامة.

ففي سبيل الإقناع يدعو الشعراء مستمعهم في كثير من الأحيان إلى خوض التجربة بأنفسهم حتى يضعهم أمام الأمر الواقع:

لَمَا شَافَ يَجْرِبُ فِي حُبِّ السَّمْحَاتِ مَا تَيْشِ مَدْرُقُ (12)

كما يعتمدون على مقولات ثابتة في ثقافة المجتمع ليثبتوا قضية تبدو ظاهريا غير مقبولة، فالقول بأن المكتوب في وسط الجبين أسطار، يبرر هذا الأمر الغريب الذي يسوقه كأمر ثابت:

هَلَاكَ الْبَنَائِمِ مِنْ فِعِيلِ دَبَائِرِهِ الْمَكْتُوبِ فِي وَسْطِ الْجَبِينِ أَسْطَارُ.

فكون تدبير المرء يؤدي به إلى المهالك، يسوقها باعتبارها حقيقة تحدث باستمرار، لا ترتبط بزمان ولا مكان، وهو حقيقة دائمة وحالة ثابتة، لذا فمرجعيتها مطلقة أو متعالية على الإشارة على حد تعبير مريم فرنسيس⁽¹³⁾ وهكذا فالنصح هنا غير صريح، والملفوظ لا يتوجه إلى المخاطبين، وليس هناك عبارات اتصالية مما ذكرناه آنفا، فهو مضمن تضمينا فإذا كان تدبير الإنسان هو الذي يؤدي به إلى الهلكة، فإن عليه أن يحسن التدبير، إلا إذا سبقه حكم القدر فلا فرار منه حينئذ. وكثيرا ما تساق ملفوظات متعالية على الإشارة، تقدم باعتبارها حقائق مطلقة يشار ضمنا للمخاطبين إلى القياس عليها:

الْبَلْدُونَ لَا تَنْصَاغُ مِنْهُ سَبَائِكُ وَلَا يَكْنُزُوهُ الْعَارِقِينَ نَخِيرَةَ

سِلْكُ الذَّهَبِ قَدْ مَا يَرِقُ لَا تَخْصُ مِنْهُ مَسَالَةَ

وَالشَّمْسُ بِالْغَرْبِ لَا تَتَغَطَّى (14)

الإقناع:

قد يسوق الشاعر النصح الضمني متبوعا بملفوظات متعالية على الإشارة، تساق على أنها حجج دامغة، فالحث على الصبر، والشاعر يحث نفسه، لكن الكلام موجه إلى المتلقين أيضا و يتضمن إقناعهم انطلاقا من حقائق بديهية: مثل:

إذا أتى الليل لازم من فجره

يعتقد أن التلازم الطبيعي بين الليل والفجر، يسوغ له المقارنة بين الليل والفجر من جهة ، وأي أمرين يكونان قطبين متضادين:

الفجر .	←	الليل
الفرج .	←	الضيق
المطر .	←	الجفاف
الصحو .	←	الغيمة
اليسر .	←	العسر

لا تَيْسُّ يَا خَاطِرِي أَمْرَ الْفُؤْدَةِ رَيْتُ الصَّبْرِ دَوَا لِي ضَاقَتْ
 إِذَا أَتَى اللَّيْلُ لَا زَمَ مِنْ فُجْرَةٍ بَعْدَ الشَّدَةِ أَفْرَاحٌ وَالنَّصْرُ
 تَتَبَدَّلُ لِفَلَائِكَ عَوَارِضُ قَطْرَةٍ تَصْحَى بَعْدَ الصَّبِّ وَالْمَيْتُ
 نَجْمَةٌ سَعْدِي لَاحٌ وَضِيَاهُ الْقَمْرَةِ وَالْعُسْرُ يُسْرِينُ مَقْرُونِينَ

فالنصح هنا ليس مقنعا فحسب إنما مدعم بمقولات مستمدة من حياة البدو في حلهم وترحالهم، ومن جوهر عقيدتهم الدينية، وميولهم الوجدانية نحو التفاؤل، وتأملاتهم في الطبيعة والكون والحياة، فالنصح يتغلغل إلى نفوسهم ويشعرهم بالارتياح.

ومع أن الخطاب الشعري الشفاهي خطاب تعبيرى انفعالي بالدرجة الأولى، يعتمد اللغة التصويرية، ويلجأ أحيانا إلى اللغة الإشارية (السرد) لمحاولة التأثير على جمهور الحاضرين، بالإحالة إلى المغزى العام من الحكى، يلجأ في حالات أخرى قليلة إلى خطاب ذي إحالة متعالية على الإشارة، تفر حقائق بديهية أو مقولات ثقافية مستقرة في الأذهان؛ كالرضا بالقدر ، وقدره الله المطلقة، يكون الهدف منها الحجاج القياسي الذي ينتقل من المقولات العامة إلى المقولات الخاصة، من أجل الإقناع وحتى التلقين.

هوامش:

- ¹ - ينظر : Dominique Maingueneau .Aborder La Linguistique ED de Seuil Paris p45
- ² - ينظر: Oswald Ducrot et Autres, Nouveau Dictionnaire encyclopédique des sciences de langage.ED Seuil Paris.1995.p765
- ³ -ينظر: Youcef Nacib Eléments sue la tradition orale ED ..1981 p8 S.N.E.D.Alger.
- ⁴ -ينظر: Emile Benvenist Problèmes de linguistique générale. ED seres Tunis1995p238.
- ⁵ -ينظر : Jean du Bois et Autres.Dictionnaire de linguistique et des science de langage.Larousse Paris 1999.p175.
- ⁶ - ينظر : مريم فرنسيس، محاور الإحالة الكلامية. منشورات دار الثقافة دمشق.1998.ص33 وما يليها.
- ⁷ - Dominique Maingueneau.op.cit.p45
- ⁸ -ينظر: R.Jacobson Essai de linguistique Générale Minuit Paris 1973p214
- ⁹ -يقول الشاعر: أصابني الأرق منذ مدة طويلة، فساعت حالي وكاد بدني أن يفنى وأتألم كأنما اخترق أحشائي مشهاب من الجمر، وتنزل دموعي غزيرة وتتصهد النار في كبدي فتصلبها. لأن ذكرى وخواطر أفقدتني صوابي فمازلت في محنة من الحزن إلى أن ألقى ذلك الذي أعاني بسبب الشوق إليه.
- ¹⁰ -بول زوميتور: مدخل إلى الشعر الشفاهي ، ترجمة وليد الخشاب ، شرقيات للنشر والتوزيع دمشق 1999.ص1
- ¹¹ - Dominique Maingueneau op .cit.p46
- ¹² -يقول الشاعر : من لم يثق ومن يعرف معاناة الحب فليجرب بنفسه فإنني لا أخفي شيئا مما أعاني.
- ¹³ - ينظر: مريم فرنسيس: محاور الإحالة الكلامية، المرجع السابق ، ص33 وما يليها.
- ¹⁴ - يقول الشاعر الأول إن سبيكة الحلي لا تصاغ من الرصاص، ولا يصلح للأكتاز نخرًا لوقت الشدة، أما الثاني فيقول إن سلك الذهب قد يرق لكنه ذلك لا يجعل قيمته كمعدن نفيس تتلاشى، أما البيت الأخير فاشمس لا يمكن تغطيتها بالغريال
- ¹⁵ -يصبر الشاعر نفسه وينهاها عن اليأس فالصبر دواء لكل من ضاقت به الدنيا ، فلا تدوم الأمور على حال فبعد الليل يأتي الفجر ، وبعد الضيق يأتي الفرج، فالنوبة الجافة تتغير

بأخرى ممطرة ثم ينفشع غيمها بعد أن تمطر ويحيي الموات ثم يقول إنه لاحت له نجمة السعد وأضاء له القمر وتحول العسر إلى يسر مضاعف.